

تفسير سورة القدر المباركة



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(إِنَّمَا أُنزَلَنَا هُوَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ شَيْءٍ * سَلَامٌ هُنَيَّ حَتَّىٰ مَطْلَاعِ الْفَجْرِ).

تذكر السورة المباركة إِنزال القرآن في ليلة القدر. وتعظم الليلة "بتفضيلها على ألف شهر" و"بتنزُّل الملائكة والرُّوح فيها" ويحتمل كون السورة مدنيةً ومكيةً، ولا يبعد من بعض الروايات في سبب نزولها كونها مدنيةً.

وبالعودة إلى السورة، فإنّ ضمير الهاء في (أنزلناه) في قوله تعالى: (إِنَّمَا أُنزَلَنَا هُوَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) يعود هذا الضمير إلى القرآن الكريم. وظاهر الضمير كلّ القرآن لا بعض آياته، ويؤيدّه التعبير بـ"الإنزال" (الظاهر في اعتبار الدفعـة الواحدة) دون "التنزيل" الذي يظهر منه اعتبار

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: (وَالْكِتَابُ الْمُبِينُ إِذَا أُنْزَلَنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبَارِكَةٍ) (الدخان/ 3)، حيث يظهر أنه سبحانه نه أقسام بجملة الكتاب المبين، ثم أخبر عن إنزال ما أقسام به جملة.

فمدلول الآيات إن "للقرآن نزولاً" "بالجملة" على النبي (ص) غير نزوله التدريجي الذي تم في مدّة ثلاثة وعشرين سنة، كما يشير إليه قوله تعالى: (وَقَرَأْنَا فِرْقَنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكَثٍ وَنَزْلَنَاهُ تَنْزِيلًا) (الإسراء / 106)، وكذلك قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جَمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لَنُثْبِتَ بِهِ فَوَادِكَ وَرَتْلَنَاهُ تَرْتِيلًا) (الفرقان / 32).

وليس في كلامه تعالى ما يُبيّن تحديد الليلة غير قوله تعالى: (شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن) (البقرة/ 185)، فإنّ هذه الآية بإنضمامها إلى آية القدر تدل على أنّ الليلة هي من ليالي شهر رمضان.. وأمّا تعبيينها أكثر من ذلك، فمستفاد من الأخبار.

وقد سمّاها الله تعالى ليلة القدر، والظاهر أنّ المراد بالقدر "التقدير"، فهي ليلة "التقدير" يُقدّر فيها حوادث السنة من الليلة إلى مثلها من قابل: من حياة وموت ورزق وسعادة وشقاء وغير ذلك، كما يدلّ عليه قوله في صفة الليلة: (فيها يُفرق كلّ أمرٍ حكيم أمراً) من عندنا إنّما كنّا مرسلين رحمة من ربّك (الدخان/ 6)، فليس فرقُ الأمر الحكيم إلا إحكامَ الحادثة الواقعـة بخصوصيتها بـ"التقدير".

ويستفاد من ذلك أنّ الليلة متكرّرة بتكرّر السنين، ففي شهر رمضان من كل سنة قمرية ليلة تُقدر فيها أمور السنة من الليلة إلى مثيلها من قابل، إذ لا معنى لفرض ليلة واحدة بعينها أو ليالٍ معدودة في طول الزمان تُقدّر فيها الحوادث الواقعة التي قبلها والتي بعدها وإن صحّ فرض واحدة من ليالي القدر المتكررة أُنزل فيها القرآن جملة واحدة.

على أنّ قوله (يُفرق) - وهو فعل مضارع - ظاهر في الاستمرار، وقوله: (خير من ألف شهر) و(تنزّل الملائكة) إلخ... يؤيد ذلك الاستمرار.

فلا وجه إذن لما قيل إنها كانت ليلة واحدة بعينها نزل فيها القرآن من غير أن تكرر، وكذا ما قيل إنها كانت تكرر بذكر رسل السنين في زمن النبي (ص)، ثم رفعها الله، وكذا ما قيل إنها واحدة

بعينها في جميع السنة، وكذا ما قيل إنها في جميع السنة غير أنها تبدر^ـ بتكرر^ـ السنين.. فسنة في شهر رمضان وسنة في شعبان وسنة في غيرهما.

وقيل: القدر بمعنى المنزلة وإنما سُمِّيت ليلة القدر للإهتمام بمنزلتها أو منزلة المتعبدين فيها، وقيل: القدر بمعنى الضيق وسميت ليلة القدر لضيق الأرض فيها بنزول الملائكة.

فمعنى الآيات - كما ترى - أنها ليلة بعينها من شهر رمضان من كل^ـ سنة فيها إحكام الأمور بحسب التقدير، ولا ينافي ذلك وقوع التغيير^ـ فيها بحسب التحقق^ـ في طرف السنة، فإن^ـ التغيير^ـ في كيفية تحقق المقدار^ـ أمر، والتغيير^ـ في التقدير أمر آخر، كما أن^ـ إمكان التغيير^ـ في الحوادث الكونية بحسب المشيئة الإلهية لا ينافي تعيينها في اللوح المحفوظ، قال تعالى: (وعنه أُمُّ الكتاب) (الرعد/ 39).

على أن^ـ لاستحکام الأمور بحسب تتحققها مراتب من حيث حضور أسبابها وشروطها تامة وناقصة، ومن المحتمل أن تقع في ليلة القدر بعض مراتب الإحكام ويتأخر^ـ تمام الإحكام إلى وقت آخر، لكن الروايات لا تلائم هذا الوجه.

قوله تعالى: (وما أدرك ما ليلة القدر) كناية عن جلالة قدر الليلة وعظم منزلتها ويؤكد ذلك إظهار الاسم مر^ـة بعد مر^ـة، حيث يقول: "ما ليلة القدر ليلة القدر خير"، ولم يقل: وما أدرك ما هي هي خير.

قوله تعالى: (ليلة القدر خير من ألف شهر) بيان إجمالي لما أُشير إليه بقوله: (وما أدرك ما ليلة القدر) من فخامة أمر الليلة.

والمراد بكونها خيراً من ألف شهر تفوّقها عليها من حيث فضيلة العبادة على ما فَسَّرَه المفسرون وهو المناسب لغرض القرآن وعنايته بتقريب الناس إلى الله.. فإحياءها بالعبادة خير من عبادة ألف شهر، ويمكن أن يستفاد ذلك من لفظ "المباركة" المذكور في سورة الدخان في قوله: (إنما أنزلنا في ليلة مباركة).

قوله تعالى: (تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل^ـ أمر) تنزّل أصله تنزّل، والظاهر من الروح هو الروح الذي من الأمر، قال تعالى: (قل الروح من أمر ربي) (الإسراء/ 85)، والإذن في الشيء

الرخصة فيه وهو إعلام عدم المانع منه.

و"مَنْ" في قوله: (مَنْ كُلَّ - أمر) قيل: بمعنى الباء، وقيل: لإبتداء الغاية وتفييد السببية أي بسبب كل "أمر إلهي، وقيل: للتعليق بالغاية أي لأجل تدبير كل "أمر من الأُمور. والحق" أن" المراد بالأمر: إن كان هو الأمر الإلهي المفسَّر بقوله: (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) (يس/82) .. فمن لإبتداء وتفييد السببية، والمعنى "تنزيل الملائكة والروح في ليلة القدر بإذن ربهم مبتداً تنزلهم وصادراً من كل "أمر إلهي".

وإن كان هو الأمر من الأُمور الكونية والحوادث الواقعة، فمن بمعنى اللام التعليلية والمعنى "تنزيل الملائكة والروح في الليلة بإذن ربهم لأجل تدبير كل "أمر من الأُمور الكونية".

قوله تعالى: (سلام هي حتى مطلع الفجر)، قال في المفردات: السلام والسلامة التعرى من الآفات الظاهرة والباطنة فيكون قوله: (سلام هي) إشارة إلى العناية الإلهية بشمول الرحمة لعباده المقربين إليه وسد باب نعمة جديدة تختص بالليلة ويلزمه بالطبع وهن كيد الشياطين، كما أشير إليه في بعض الروايات.

وقيل: المراد به أن" الملائكة يُسلِّمون على مَنْ مَرَّوا به من المؤمنين المتبعدين ومرجعه إلى ما تقدم.

والآيات أعني قوله: (تنزل الملائكة) إلى آخر السورة في معنى التفسير لقوله: (ليلة القدر خير من ألف شهر).